

Commenter en arabe le texte suivant et traduire du début du texte jusqu'à  
« ... هم الذين تبوأوا أعلى المراتب أيام الإنكليز » [...].

- 5 نعم، مصطفى سعيد كان أنبغ تلميذ في أيامنا. كنا في فصل واحد. كان يجلس في الصف الذي أمام صفنا مباشرة، ناحية اليسار. يا للغرابة، كيف لم يخطر على بالي قبل الآن مع أنه كان معجزة في ذلك الوقت؟ [...] كان منعزلاً ومتعالياً، يقضي أوقات فراغه وحده، إما في القراءة أو في المشي مسافات طويلة [...]. كان نابغة في كل شيء، لم يوجد شيء يستعصي على ذهنه العجيب. كان المدرسون يكلموننا بلهجة ويكلمونه هو بلهجة أخرى. خصوصاً مدرسو اللغة الإنجليزية، كانوا كأنما يلقون الدرس له وحده دون بقية التلاميذ.
- 10 وصمت الرجل برهة، فأحسست برغبة شديدة أن أقول إنني أعرف مصطفى سعيد، وإن الظروف ألفت بي في طريقه، فقص عليّ، ذات ليلة مظلمة قائضة، قصة حياته، وإنه قضى آخر أيامه في قرية مغمورة الذكر عند منحى النيل، وإنه مات غرقاً، وربما انتحاراً، وجعلني أنا دون سائر الناس وصياً على ولديه. لكنني لم أقل شيئاً، إنما المأمور المتقاعد هو الذي استطرّد:
- 15 " قطع مصطفى سعيد مرحلة التعليم في السودان قفراً - كان بالفعل كأنه يسابق الزمن. وبينما ظللنا نحن بعده في كلية غردون، أرسل هو في بعثة إلى القاهرة وبعدها إلى لندن. كان أول سوداني يرسل في بعثة إلى الخارج. كان ابن الإنكليز المدلل. وكنا جميعاً نحسده، ونتوقع أن يصير له شأن عظيم. نحن كنا ننطق الكلمات الإنكليزية كأنها كلمات عربية. لا نستطيع أن نسكن حرفين متتاليين. أما مصطفى سعيد فقد كان يعوج فمه، ويمط شفتيه، وتخرج الكلمات من فمه كما تخرج من أفواه أهلها. كان ذلك يملونا غيظاً وإعجاباً في الوقت نفسه. وكنا نطلق عليه بخليط من الإعجاب والحقد "الإنكليزي الأسود". وعلى أيامنا، كانت اللغة الإنكليزية هي مفتاح المستقبل - لا تقوم لأحد قائمة بدونها. كلية غردون كانت مدرسة ابتدائية. كانوا يعطونها من العلم ما يكفي فقط لملء الوظائف الحكومية الصغرى - أول ما تخرجت، اشتغلت محاسباً في مركز الفاشر. وبعد جهد جهيد قبلوا أن أجلس لامتحان الإدارة. وقضيت ثلاثين عاماً نائب مأمور. تصوّر. وقبل أن أحال على المعاش بعامين اثنين فقط رقيت مأموراً. كان مفتش المركز الإنكليزي إليها يتصرف في رقعة أكبر من الجزر البريطانية كلها، يسكن في قصر طويل عريض مملوء بالخدم ومحاط بالجند. وكانوا يتصرفون كالآلهة. يسخّروننا نحن الموظفين الصغار أولاد البلد لجلب العوائد، ويتذمر الناس منا ويشكون إلى المفتش الإنكليزي. وكان المفتش الإنكليزي طبعاً هو الذي يغفر ويرحم. هكذا غرسوا في قلوب الناس بغضنا، نحن أبناء البلد، وحبهم هم المستعمرون الدخلاء. وتأكد من كلامي هذا يا بني. ألم تستقل البلد الآن؟ ألم تصبح أحراراً في بلدنا؟ تأكد أنهم احتضنوا أزدال الناس. أزدال الناس هم الذين تبوؤوا المراكز الضخمة أيام الإنكليز. كنا واثقين أن مصطفى سعيد سيصير له شأن يذكر. كان أبوه من العبايدة، القبيلة التي تعيش بين مصر والسودان [...]. ويقال إن أمه كانت رقيقاً من الجنوب. من قبائل الزاندي أو الباريا، الله أعلم. الناس الذين ليس لهم أصل، هم الذين تبوأوا أعلى المراتب أيام الإنكليز " [...].
- 20 وفي الخرطوم أيضاً، عرض لي طيف مصطفى سعيد، بعد محادثتي مع المأمور المتقاعد بأقل من شهر، كأنه جنّ أطلق من سجنه، سيطر بعد ذلك بوسوس في أذان البشر، ليقول ماذا؟ لا أدري. كنا في بيت شاب سوداني يحاضر في الجامعة، كنا أنا وهو زملاء دراسة في إنكلترا. وكان بين الحاضرين رجل إنكليزي يعمل في وزارة المالية. وصل بنا الحديث إلى موضوع الزواج المختلط. وتحول الحديث من نقاش عمومي إلى كلام عن حالات محددة. ثم من هم المتزوجون من أوريبيات؟ ثم من إنكليزيات؟ من هو أول سوداني تزوّج إنكليزية؟ فلان؟ لا. فلان؟ لا. وفجأة ... مصطفى سعيد. قالها الشاب المحاضر في الجامعة، وعلى وجه إحساس الفرحة ذاته الذي لمحتة على وجه المأمور المتقاعد. ومضى الشاب يقول، تحت سماء الخرطوم المرصعة بالنجوم في أوائل فصل الشتاء: "مصطفى سعيد كان أول سوداني تزوّج إنكليزية، بل أنه كان أول سوداني تزوّج أوروبية إطلاقاً. أظن أنكم لم تسمعوا به، فقد نزع من زمن. تزوج في إنكلترا وتجنس بالجنسية الإنكليزية. غريب أن أحداً هنا لا يذكره، مع أنه قام بدور خطير في مؤامرات الإنكليز في السودان في أواخر الثلاثينات. إنه من أخلص أعوانهم. وقد استخدمته وزارة الخارجية البريطانية في سفارات مربية في الشرق الأوسط. وكان من سكرتيري المؤتمر الذي انعقد في لندن سنة 1936. إنه الآن مليونير، ويعيش كاللوردات في الريف الإنكليزي".
- 30 "وسمعت نفسي أقول دون وعي، بصوت مسموع: مصطفى سعيد ترك، بعد موته، ستة أفدنة، وثلاث بقرات وثوراً، وحمارين وإحدى عشرة عزاً، وخمس نعجات، وثلاثين نخلة، وثلاثاً وعشرين شجرة بين سنط وطلح وحرّاز، وخمساً وعشرين شجرة ليمون ومثلها برتقال، وتسعة أراب قمح وتسعة ذرة، وبيتاً مكوناً من خمس غرف، وديوان، وغرفة واحدة من الطوب الأحمر، مستطيلة الشكل، ذات نوافذ خضراء، سقفها ليس مسطحاً كبقية الغرف ولكنه مثلث كظهر الثور، وتسعمائة وسبعة وثلاثين جنيهاً وثلاثة قروش وخمسة ملاليم نقداً".
- 40

الطبيب صالح (1929-2009)، موسم الهجرة إلى الشمال، 1966.